المحور السابع: المظاهر الحضارية في نوميديا -الحياة السياسية والاقتصادية-

I.الجانب السياسي:

أ- نظام الحكم:

1.الملكية:

ساد النظام الملكي الوراثي، حيث جاء في النقوش الليبية ان الملك كان يلقب بالأقليد في اللغة الليبية[278] ، وكان يعيش في قصر في عاصمته، أما عن توليه العرش فقد كان في البداية يتم وفق تقليد يقتضي بتولية العرش للأكبر سنا في الأسرة المالكة[279]، كما حدث في عهد "غايا" الذي بوفاته في سنة 206 ق.م خلفه اخوه الاكبر سنا في الأسرة "أوزلاقن" الذي خلفه بدوره ابنه الاكبر سنا كذلك كابوسا الأكبر من ماسنسان في سنة 204 ق.م[280].

وبوفاة ماسنسان 148 ق.م، نجد تغيرا في شكل حكم أبناءه الثلاثة، حيث قسمت السلطة تقسيما حقيقيا، حيث تولى مكوسن او مسيبسا او مكيبسا تولى السلطة التنفيذية وغلوسن او غلوسا تولى الامور السلطة العسكرية، ومسطنبعل تولى السلطة القضائية[281]، ونفس الامر حدث بعد وفاة مكيبسا 118 ق.م حيث خلفه ابنيه عزربعل وحفصبعل وابنه بالتبني يوغرطة[282]، وكذلك تتحدث المصادر عن توريث عرش غودا 88 ق.م بنفس الطريقة حيث خلفه ابناءه حفصبعل الثاني وهيرباس وماسنسان الثاني[283].

لكن سعة المملكة وصعوبة الاتصال، وكذا النظام القبلي و اختلاف نمط المعيشة بين الحضر والرحل، وقفت حائلا والسلطة المركزية المطلقة، مما دفع محمد قنطر الى افتراض وجود ثلاثة نظم ادارية في ذات الوقت: الادارة المركزية بالعاصمة قيرطا كمقر مركزي، الادارة القبلية وعلى رأس كل قبيلة رئيس يحصل على سلطته سواء من القبيلة التي ينتمى اليها أو من الملك، وأخيرا ادارة المدن التي وان كانت تعترف بالروابط التنظيمية التي تربطها بالمملكة فهي كانت تتمتع باستقلالية واسعة في تسيير مصالحها البلدية الخاصة[284].

2. إدارة الأقاليم:

اذا كنا لا نملك أية وثائق حول الادارة المركزية، ولا نعرف شيئا عن وزراء الملك، الذين يفترض البعض أن يكونوا من المقربين للملك الذي يزودهم بصلاحيات ادارية واسعة، نجد عدة نصوص تتحدث عن ولاة

الملك في الأقاليم، فهذا نص تيتوس ليفيوس الذي يتحدث عن تعيين سفاكس لولاة له في بلاد الماسيل، كما تحدث سالوست عن ولاة للملك يوغرطة، الذين استقبلوا ميتيلوس عند اجتياحه الاراضي النوميدية [285].

مما يوحي بوجود حكام أقاليم يخضعون لأوامر السلطة المركزية، بل ذهب البعض إلى افتراض تقسيم مملكة المازيسيل إلى امارات مستقلة خاصة في المناطق الداخلية.

وعلى السواحل كانت المدن ميالة إلى الاتساع والانفصال في وحدات شبه مستقلة في كل ما يخص حياتها الداخلية، وهو ما نسميه بنظام البلديات [286].

3.البلديات:

التنظيم لم يقتصر على المدن الساحلية، بل حتى المدن الداخلية ذات الأصول المحلية كان لها هذا التنظيم، حيث كانت المجالس البلدية مكونة من الاعيان المنتخبين وعلى رأسهم قاضيان "شفطان" يشرفان على الشؤون العامة، يحكمون الأمور والمنازعات، وتبين نقيشة دوقة السلطة الحاكمة في تلك المدينة مكونة من الحاكم العام الملقب بالاقليد ويمارس سلطته في المدينة لمدة سنة، وضابطان عسكريان برتبة قائد مئة مقاتل، وضابط مساعد برتبة قائد خمسين مقاتل وثلاث موظفين مدنيين[287].

كان إلى جانب هؤلاء الحكام مجلس مشكل من اعيان المدينة على ما يفهم من النقوش، أو حتى مجلس الشعب كانت بيده السيادة المحلية[288].

4.النظام المالي:

كانت الضرائب المصدر الأساسي لجمع الأموال، وكانت تدفع عينا، ربما عشر أو خمس أو ربع الانتاج، اضافة إلى الضريبة على المواشي، وهذا ماتدلنا عليه عملية الاحصاء التي يقوم بها الملوك النوميديون على مايذكر سترابون، هذا في الأرياف، أما في المدن فقد كانت تدفع نقدا مثلما كانت تفعل مدن السيرت في عهد الملك ماسينيسان[289].

كما شهدت النصوص التاريخية بان الخزائن في قيرطا وزاما كانت مليئة بعائدات الضرائب غير اننا لا نعرف الكثير عن قيمة تلك الضرائب[290].

ما جعلها تسيل لعاب المرتشين وقد تغنى بها البعض، ويقول شيرشون أن ليوبا الاول مال بعدد شعر راسه، وأن هذه الضرائب كانت منتظمة في المدن النوميدية وفي الأرياف حيث المزارعون المستقرون، وتوكل مهمة تحصيلها الى مكلفين محليين في المدن والقرى والقبائل، وكان عليهم تقديمها لأمناء الملك[291]، ذكرت المصادر عددا من المدن كانت مقرا للخزينة الملكية سيرتا سوثول تالة كابسا، كانت مقرات جهوية للمالية التي تقوم بدفع رواتب الموظفين والعمال في تلك الاقاليم[292].

5.الشرطة:

معلوماتنا حول الشرطة ضئيلة، وكل ما نعرفه وجودها في المدن الهامة، ونعرفها خاصة في فترات الحرب، ومهمتها في هذه الحالة الدفاع عن هذه المدن ضد الأعداء و بهدف ضمان الاستقرار بها. حيث وجدت الشرطة في المدن الرئيسية مثل دوقا وقيرطا.

أما الجيش فقد كان جيشا نظاميا يقيم قرب القصر الملكي وفي العواصم الإقليمية، وقد تلخصت مهمته في اثناء السلم في شق الطرق والسدود وبناء القرى وغرس الأشجار وبعض اعمال الزراعة مثل زراعة الحبوب والعمل على استقرار البدو، وكان يجتمع في شكل سرايا يقودها ضباط.

كان الجيش في حالات الحرب يجنّد وحدات الاحتياط وتسرّح بمجرد انتهائها، حيث سلح الجيش بالأسلحة الدفاعية كالدروع البيضاوية وواقيات الصدر، والهجومية كالرماح والنبال والمقاليع والسيوف القصيرة والفؤوس، كما استعملوا الخيول والفيلة، وكان يتكون من مشاة وفرسان.

أما عن الانخراط في الجيش فكان طواعية او بتجنيد المرتزقة مثل:(الليقوريين والاسبان والتراقيين والغاليين)، أما عن البحرية بدأ الاهتمام بها خاصة منذ عهد الملك ماسينسان اذ نجد نصوصا تتحدث عن أسطول هذا العاهل الذي يجول عباب البحر الأبيض المتوسط، فبالإضافة إلى دور هذا الأسطول في التجارة، كان عليه دفع القرصنة وصد الأعداء[293].

II.الجانب الاقتصادي :

تجمعت في نوميديا في عهد ملوكها الأهالي، عناصر هامة لتحقيق نشاط اقتصادي زاهر، فلاستقرار السياسي الناجم عن طول فترى الحكم معظم الملوك –ماسنسان 55سنة، مكوسان30 سنة، حفصبعل الثانيما يقرب 33 سنة- نتج عنه تنشيط المبادلات التجارية، خاصة بعد زوال الاحتكار القرطاجي وفتح ماسنسان للموانئ في وجه التجار الاغريق وغيرهم[294].

1. النشاط الرعوي والثروة الحيوانية:

كان النشاط الرعوي في المغرب القديم سابقا للنشاط الزراعي، وقد ساعدت في ذلك البيئة الجغرافية وقد كانت الحيوانات المستأنسة توفر لهم الملابس والاحذية والسروج بالإضافة الى الاغذية كالألبان والأجبان واللحوم[295]، ولذلك أشاد سالوست بأجسامهم القوية وأنهم مديدو الأعمار[296]، ومن اهم الحيوانات التي كان يربيها المغاربي القديم الاغنام والماعز والابقار وقد مارس تربيتها المستقرون وذلك بدليل اعتماد الثيران في جر المحراث، بالإضافة الى اعتمادهم على تربيه الفيلة وترويضها واستعمالها في الحروب فكانت تعتبر دبابة الحروب القديمة، كما قاموا بتربية الخيول وقد استعمل في جر العربات وكان عماد الحروب لسرعته وسهولة انقياده، بالإضافة الى تربية الدواجن والنحل[297].

وحتى بعد ظهور الزراعة ظل النشاط الرعوي يحتل الدرجة الأولى كما تشير إلى ذلك الكثير من الدلائل الأثرية، حيث ظهر الحصان في العملة النوميدية إلى جانب الملوك حيث كانت تعتبر عنوان الفخامة والأبهة، وما قام به ماسينسان ما هو في الواقع إلا محاولة لإقامة توازن بين النشاطين الرعوي والزراعي وذلك دليل على تمتع هذا الملك برؤية اقتصادية استراتيجية معتبرة[298].

2. النشاط الزراعي:

كان المغرب القديم، يتوفر على امكانيات اقتصادية هامة، حيث تعد الفلاحة قديما عنصرا هاما في الاقتصاد، بالرغم من عدم تغير الجغرافيا للمنطقة، حيث أنها كانت دائما تفوق حاجيات البشرية.

كان النشاط الرعوي سابقا للنشاط الزراعي بكثير في المغرب القديم، إلا أن ظهورها في المنطقة يعود الى فجر التاريخ ونهاية العصر النيوليتي فيما عرف بثورة انتاج الطعام، وذلك يؤكده تقسيم الاراضي الزراعية الذي تميّز بالدقة، وكذا الادوات الزراعية التي وجدت في موقع الداموس الاحمر بتبسة مثل الفؤوس والمناجل وحجارة سحق الحبوب[299].

أ. الملكية الزراعية:

لم يرد في أخبار القدامى، ما يفيدنا في معرفة نظام الملكية عند النوميديين، غير أن بعض التلميحات تسمح لنا بالقول، بوجود اراضي ملكية تابعة للقصر وأخرى للأمراء وكذا أراضي المعابد اضافة إلى الملكية الفردية الخاصة[300].

فلا يستبعد قزال أن تستغل هذه الأراضي الملكية والاميرية بواسطة رجال أحرار، مثلها في ذلك مثل أراضي البراري "Saltus" التي خلفتها، فكان هؤلاء الأحرار يستقرون في هذه الأراضي، ويستغلونها مقابل الالتزام بدفع نصيب من الانتاج لصاحبها[301]. وأما الملكيات الفردية وأراضي المعابد فقد كانت تستغل من طرف أصحابها ، اما الاراضي الرعوية فلا مكان هنا للملكية الفردية، ولا مكان لتقسيم المرعى، فقد كانت تحت تصرف كل العشيرة[302].

وقد أشاد الكثير من المؤرخين بخصوبة الاراضي النوميدية، حيث أشار استرابون انه في الربيع لا يبذرون الأرض بل يكفي تحريك التربة بحزم من الباليور لكي تنبت زرعا جديدا من البذور التي سقطت اثناء الحصاد[303]، كما اشار هيرودوت في مقارنة له بين اراضي بابل واراضي المغرب القديم الى خصوبة هذه الأخيرة[304]، والبعض يرجع ذلك الى سياسة مسينيسا في تشجيع استصلاح الاراضي[305].

ب. أدوات الانتاج:

يرى كثير من المؤرخين أن المغاربة القدامى من حيث أدوات الانتاج، فقد كانت لهم تقنياتهم الخاصة في مجال الفلاحة، وهي تقنيات قديمة، تعود إلى ما قبل الفينيقيين بزمن طويل، كما استعمل المغاربة القدماء

ادوات محلية وأخرى جاءت مع الفينيقيين للمنطقة، فقد استخدموا المجرفة قبل المحراث والمعول وانواع من المعازيق المحلية والمنجل، كما استخدموا في الدرس طريقة بدائية باستعمال الحيوانات (كالثيران والبغال والحمير والخيول) بدوس السنابل على البيدر، وطريقة اكثر تطورا استخدمت فيها العربة البونيقية (Plostellum poenicum)، تتكون من قطعتين من الخشب بعجلتين صغيرتين مسننتين من الحديد، وهو ماجعل دكري "Decret" وفنطر يقولان بوجود تقليدين متجانسين في الأعمال الفلاحية في نوميديا عشية الاحتلال الروماني، محلي أصيل وعادات واردة من الشرق مع الفينيقيين [306].

ت. الانتاج الزراعي:

رغم قلة الوثائق المتعلقة بالزراعة في بلاد المغرب القديم فإنها دلت على أن الفلاحة حظيت بعناية الإقليد ماسنسان، الذي توفرت في عهده كل الشروط اللازمة لقيام نهضة فلاحية في نوميديا. ومن بين هذه الشروط وفرة المساحات الواسعة لزراعة الحبوب ،وطول فترة الحكم لملوكها[307].

يبدو من خلال النصوص أن الحبوب "القمح والشعير" كانت تحتل الصدارة في الزراعة النوميدية، كما عرف المغربة البقول "كالفول والحمص والعدس والجلبان" منذ فترة مبكرة، وزراعات معيشية في مراكز التجمعات السكانية" قيرطا، تبسة، دوقة"، حيث نجد زراعة "البصل والثوم والخرشوف والخردل والكراث والقرع والبطيخ..." [308]، اما الزراعة التشجيرية فقد أخذت اهتمام المغاربة، وكانت وفيرة مثل الزيتون والتين والعنب واللوز والتمر، بالإضافة إلى الفواكه التي يكون الفينيقيين والقرطاجيون قد جلبوها من المشرق ونشروا زراعتها في المغرب مثل: الرمان والتفاح...[309].

3. النشاط الصناعي:

لقد ظل النشاط الزراعي والرعوي هما النشاطان اللذان يستحوذان على أغلبية القوى العاملة، ومع ذلك ظهرت أنشطة حرفية صناعية لتلبية حاجيات المجتمع، ومن خلال المكتشفات الأثرية أمكن التعرف على أهم تلك الأنشطة وما وفرته من مصنوعات[310].

أ- **صناعة الفخار:** كان كومس يقسم الفخار إلى فخار نذري لا يحتوي على أكثر من قيمته التعبدية، وفخار عائلي لمختلف الاستعمالات اليومية [311].وتجدر الإشارة الى ان الفخار الجنائزي لم يكن يحظى بعناية الصناع مقارنة بذلك الموجه للاستعمال اليومي ، ويمكن التمييز بين أنواع الفخار من حيث طبيعة الزخارف والألوان أو بالتحزيزات الناتئة او الغائرة[312].

أما عن الأواني فيمكن أن نصنفها في أربعة مجموعات:

* أواني الطهي *أواني الأكل * أواني الشرب * أواني التخزين[313].

ب- **صناعة الملابس والحلي**: من ضمن الملابس التي استخدمها المغاربة القدامى، نجد الجلابيب والمعاطف التي صنعت من الصوف، واحيانا يلبس المغاربي سترة تحت المعطف، كما ارتدوا ملابس داخلية خفيفة، وأحيانا يكتفون بسترة توثق بحزام حول الوسط أو بجلباب قصير، بالإضافة إلى البرنس "البرنوس" الذي أخذ شهرته ضمن الملابس المحلية، أما عن مكانتها فقد تجاوزت شهرة المنتوجات النسيجية الاسواق المحلية على الجوخ المصنوع من شعر الماعز في لبدة، كما أشاد فيرجيليوس بالقبعات الليبية، وتحدث سولينوس عن الأقمشة الأرجوانية التي تنافس مثيلاتها القادمة من الشرق [314].

أما صناعة الحلي عثر في القبور ضمن الأثاث الجنائزي على الكثير من الحلي، ضمنها خواتم وأقراط وخلاخل وعقد وأساور من معادن مختلفة وزجاج [315].

ت- **صناعة الأسلحة:** تتحدث المصادر الأدبية عن الأسلحة التي صنعها واستعملها الأفارقة وجاءت الأبحاث الأثرية لتدعم وتثري المعلومات التاريخية في هذا المجال، وأهم هذه الأسلحة الرمح الذي اعتبره اقزال الحربة سلاح البربر الوطني، كان يحمل معه الفارس على الأقل ثلاث حراب كما ورد في هيرودوت، أما سيليوس الايطالي فذكر بأن الحربة "الرمح" كانت تصنع من القصب[316].

تدل العديد من النصب على وجود السيف ضمن أسلحة محاربي الشمال الافريقي، ويثبت نصب عين خنقة " سيقوس" قدم هذا السلاح في المنطقة، و أشار تيت ليف إلى أن السيف لم يكن منتشرا بكثرة،

ولعله كان منتشرا بين فرق النخبة من الفرسان والمشاة أو طبقة القادة، بالإضافة الى الدروع التي كانت تصنع حسب ابيانوس من جلد الفيلة والخوذة وواقيات الصدر التي تحدث عنها استرابون انها كانت تصنع من الجلود[317].

4. النشاط التجاري:

الحديث عن التجارة يؤدي بنا إلى تقسيمها إلى تجارة داخلية وتجارة خارجية، ومعارفنا عن الأخيرة أوسع، وذلك لاهتمام المؤرخين اللاتينيين والاغريق بها نتيجة الصلة التي تربطهم بالمنطقة.

أ.التجارة الداخلية: وهي التجارة المحلية البرية، يمكننا الحديث عن عمليات الصرف التي كانت تقوم بها المدن التي تستجيب للحركة التجارية الكبرى، فتصرف انتاجها نحو المراكز الكبرى حيث تتمكن السفن ضمان النقل لها داخل نوميديا، وفي هذا الاطار تكشف لنا النقوش العلاقات القائمة بين المدن النوميدية مثل :"بجاية" ويول " شرشال" وبين يول وطنجة ...،حيث كانت تقوم على المقايضة[318].

ب.التجارة الخارجية: استرجع ماسنسان معظم المدن الساحلية التي أصبحت بوابات له على عالم البحر الأبيض المتوسط، وكسر بذلك الاحتكار الذي فرضته قرطاجة على بلاد المغرب منذ أمد طويل، وهو ماساهم في انعاش الحركة التجارية التي نفهم من المصادر أنها كانت موجهة[319]، أما التجارة الحرة فقد كانت تعتمد على المدن الساحلية يول (شرشال)، صلداي (بجاية) وقونونو (قوراية) وطنجة التي ذكرها استرابون مثل يول وصلداي والمرسى الكبير[320]، بالإضافة الى مدن طرابلس وهيبو ريجيوس وروسيكادا والقل التي مارست تجارة حرة، واعتبرت منافذ تجارية تجاوزت اسوار روما لتصل منتوجاتها الى العديد من بلدان المتوسط بدليل البقايا الاثرية والقطع النقدية التي عثر عليها في غالة واسبانيا وبلاد الاغريق[321].

ج.الأسواق: كانت عبارة عن أسواق اسبوعية وأخرى موسمية في شكل معارض كبرى، اما الاسواق الموسمية او السنوية فخير مثال عليها سوق الخريف بتكوت (باتنة) الذي ظل يقام كل خريف، وحسب قزال فإن أغلب المدن النوميدية كانت اماكن تقام فيها اسواق مثل ماكوماداس (بالقرب من ام البواقي) وتيفست وباجة التي

كانت سوقا للحبوب، وقيرطا التي كانت سوقا يرتاده الناس من مختلف الاقاليم، وعرفت الارياف تجارا متجولين منذ عهود قديمة [322].

د.الصادرات والواردات: احتلت الحبوب الصدارة في الصادرات النوميدية، وعلى الاخص القمح والشعير، بالإضافة الى الحيوانات مثل الفيلة والخيول وبعض الحيوانات المفترسة التي كانت تزين المدرجات الرومانية مثل الاسود والدببة والفهود...، بالإضافة الى الأبقار والماعز والأغنام، والعسل الافريقي الذي تحدث عنه هيرودوت وبلين، وكذا الاخشاب مثل العفصية التي كانت تستخدم في صناعة الأثاث، والعاج والمرمر [323].

أما عن الواردات فمعلوماتنا عنها قليلة نظرا لاهتمام المصادر بالسلع التي كانت توجه لروما وليس العكس واعتمادا على البقايا الاثرية يمكن القول ان الواردات هي مصنوعات فخارية كالمصابيح والآجر والانابيب التي عثر عليها في مناطق مختلفة من المغرب [324].

في أي نظام سياسي مهما كان شكله يكون تحصيل الضرائب من المهم الأساسية، حيث ضريبة هي مجموع الواجبات المستحقة للدولة على الأفراد والجماعات أي اقتطاع أقساط من أموال الشعب أو الرعية لدعم خزينة الدولة، وقد كانت تنفق على أجهزة الدولة أو على رفاهية الطبقة الحاكمة، ولذلك كانت احدى مظاهر القهر المسلطة على الشعوب أفراد وجماعات [325].

هـ.العملة: هي عنوان الشخصية الوطنية والهوية الحضارية والاستقلال الاقتصادي، وقد وجد الأثريون خلال أبحاثهم وحفرياتهم عددا كبيرا من القطع النقدية من معدني البرونز والرصاص تعود إلى الملوك النوميد والموريتانيين، وتحمل العملة في الغالب صورة الملك أو صورة حصان [326].

وقد كانت العملة الاجنبية في المغرب اكثر تداولا، وذلك لأن المغاربة كانوا يقدمون السلع مقابل تلك العملة، ولكن سرعان ما تحول الاقتصاد النوميدي من اقتصاد طبيعي الى اقتصاد نقدي في القرن 3 ق.م [327] وكان لسفاكس عملته التي حملت بعضها صورته والبعض الآخر صورة ابنه فرمينا [328]، أما عملة ماسينيسا فتتمثل في قطع نقود التي تحمل على وجهها صورة شخص ملتحي والوجه الثاني فيه صورة حصان متجه إلى اليسار في حالة عدو او صورة فيل [329].